

محنة الهجاء والهجائين في الأدب الأندلسي

بقلم : بسام البرقاوي

المقدمة :

يعود منشأ اهتمامنا بهذا الموضوع إلى ما كنا لاحظناه في عمل سابق⁽¹⁾ من مظاهر عديدة أكدت لنا، في غير شك، أنّ فنّ الهجاء في الحضارة الأندلسية قد لحقه غبن كبير وغمره نسيان غير قليل. فُحِض عندما تتبّعنا حضور هذا الغرض في عدد من مؤلفات لسان الدين بن الخطيب (713 - 776 هـ/ 1313 - 1375 م) بأنّ لنا أنّ أدباء الأندلس قد أهملوا شعر الهجاء، أوهم بصورة أدقّ، التفتوا إليه ولم ينشغلوا به. وكاد الظنّ يذهب بنا إلى أنّ الصورة التي رسمت للهجاء في تلك المؤلفات إنّما هي صورة تعكس اختياراً ذاتياً وموقفاً فردياً أكثر ممّا تنقل واقعاً حقيقياً.

غير أنّ تقليب النظر في عدد غير قليل من المظانّ الأندلسية جعلنا ننتهي إلى حقيقة مدارها على أنّ هذا الفنّ قد عرف "محنة" حقيقية إذ نشأ ونما وتطورّ محاصراً بأغلال شديدة ومقامع كثيرة. لذلك رأينا أن

(1) كنّا قد انجزنا بإشراف الأستاذ الطيّب العشّاش في نطاق شهادة الدراسات المعمّقة بحثاً بعنوان "ابن الخطيب ناقداً ومؤرخاً للأدب الأندلسي" : "الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة" نموذجاً (بحث مرقون بكلية الآداب منوبة).

نعود بالمسألة إلى جذورها عسانا ننفذ إلى الأسباب التي جعلت الأندلسيين لا يهتمون بالهجاء إلا قليلا.

وقدّرنا أنّ الإلمام بدقائق هذه المسألة وخفاياها لن يتحقق في الصورة التي ترضي فضول الباحث ما لم نجعل محاورنا البارزة ثلاثة : أولها مسائل التاريخ عما تعرّض إليه شعراء الهجاء من ألوان الاضطهاد، وثانيها يستنطق الدواوين الشعرية بحثا عن منزلة الهجاء من أغراض الشعر التي نظم فيها الأندلسيون، وثالثها يستقرئ كتب التراجم الأدبية تقصيا لمواقف أصحابها من هذا الفن.

I - مجليات المهنة :

1 - قامت قيامته وأمر بقتله ⁽²⁾ :

قد لا يخفى عن الناظر في تاريخ الأدب العربي ما لحق الكثير من شعراء الهجاء من ضروب الأذى وألوان المحن، فقبل مجيء الإسلام، وخاصة بعده، نكّلت السلطة السياسية بالهجّائين وقذفت بهم في غياهب السجون والأقبية وأهدرت دماءهم. ولعلّ في إهدار الرسول لدماء الشعراء الذين عارضوا دعوته ومسّوه بالهجاء من جهة ⁽³⁾ ولعلّ فيما لقيه بعض كبار الشعراء أمثال بشّار (95 - 167 هـ / 784 - 714 م) من بعض الخلفاء والوزراء ⁽⁴⁾ ما يكفي للبرهنة على أنّ رحلة الهجاء في

(2) روي صاحب التّفح، في ترجمته لأبي بكر أحمد الانصاري المعروف بالأبيض ما نصّه

«وكان شاعرا وشاحا وطاح دمه على يد الزبير أمير قرطبة لما هجاه بمثل قوله | الكامل |

عَكَفَ الزَّبِيرُ عَلَى الضَّلَالَةِ جَاهِدًا وَوَزِيرُهُ الْمَشْهُورُ كَلَبَ النَّارِ

(...) ولما بلغ الزبير عنه ذلك وغيره أمر بإحضاره، فقرعه، وقال ما دعاك إلى هذا ؟ فقال :

إنّي لم أر أحقّ بالهجو منك، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت نفسك إنصافا،

ولم تكلها إلى أحد فلمّا سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله.

المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق

محيي الدين عبد الحميد، بيروت : دارالكتاب العربي، 36/7 - 37.

(3) سامي مكّي العاني، الإسلام والشعر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1983

، ص ص 72 - 80.

(4) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمّد شاکر، دار المعارف، دت، ج 760/II.

المشرق قديماً إنما كانت رحلة ممّضة عاتية لما تعاورها أحياناً كثيرة من
لفح السيّاط ولما تناوبها من صليل السيّوف.

ويظهر لمن تتبّع تراجم بعض الشعراء في الأندلس أنّ الهجاء لم يكن
بمناى عن عذاب السّلطة ولا بمنجاة من مقصّلتها، وربّما لا نبالغ في هذا
السياق إذا ذهبنا إلى أنّ محنة الهجاء في الأندلس قد كانت أثقل وطأة
وأشدّ مرارة من محنته في المشرق، لأنّه لئن وجدنا بعض الأمراء
الأمويّين والعبّاسيّين قد شجّعوا، أحياناً، فنّ الهجاء ومنحوا أصحابه العطايا
وأغدقوا عليهم الهدايا وأغروهم بالتهاجي⁽⁵⁾، فإنّنا ألفينا حكّام الأندلس
وفقهاءها وأثرياءها معرضين عن الهجاء عموماً رافضين الهجاء السّياسيّ
خصوصاً. وإذا ما نحن تقصّينا مظاهر من المعاناة التي عرفها الشعراء
الهجّاءون في هذه الحضارة بانّ لنا أنّ بطش السّلطة قد ظهر في
مختلف المراحل التي عرفها الأدب الأندلسيّ - وإن كان الاضطهاد قد
برز أكثر ما برز في عصر الطوائف - وبانّ لنا تعدّد الأطراف التي
ساهمت في تطويق مسالك الهجاء. ولعلّ فيما سنسوق من شواهد ما
يقدم صورة شاملة عن محنة الهجاء في الحضارة الأندلسيّة. "فمن
الشّعراء الذين اشتهروا بالهجاء مؤمن ابن سعيد (ت 267 هـ/ 880 م)،
وقد رماه طول لسانه في السّجن حتّى مات فيه"⁽⁶⁾. وروي عن عبد
الله القلّفاط القرطبي (ت 302 هـ/ 914 م) أنّه هجا إبراهيم بن حجّاج

(5) الاصفهاني، كتاب الأغاني، تحقيق يوسف البقاعي، فريد السّليم، بيروت مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات، ط 2000/1، ج 64/III.

(6) محمّد رضوان الدّاية، في الأدب الأندلسيّ، دمشق، دار الفكر ط 2000/1، ص 72.

ملك إشبيلية (ت سنة 288هـ/900 م) فتوَّعده بالقتل إن لم يكف عن هجائه (7). وتعرَّض عبد الرَّحمان الألبيري (ت ؟) (8) إلى الضَّرب الموجه وطيف به على الأسواق عندما هجا قاضي غرناطة أبا الحسن بن توبة (ت بعد 450 هـ/1058 م) ومن نصره من الفقهاء (9). ولعلَّ الطَّريف في هذا العقاب تحوُّله إلى نصِّ هجائيّ نظمه أبو إسحاق الألبيري الزَّاهد (نحو 335 هـ - نحو 460 هـ/947 - 1067 م) وكان يومئذ كاتباً للقاضي المذكور، ونذكر ممَّا جاء فيه | البسيط | :

السَّوْطُ أَبْلَغُ مِنْ قَالٍ وَمِنْ قِيلٍ وَمِنْ نُبَاحٍ سَفِيهِ بِالْأَبَاطِيلِ
(...) فَقُلْ لَهُ إِنْ جَرَى هَجْوُ بِخَاطِرِهِ اذْكُرْ قِيَامَكَ مَحْلُولَ السَّرَاوِيلِ
وَاذْكُرْ طَوَافَكَ فِي الْأَسْوَاقِ مُقْتَضِحًا مُجَرَّدًا خَاشِعًا فِي ذُلِّ مَعْرُولٍ ! (10)

وقد عاش خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسَّميسر (ت 480 هـ /1087 م)، وهو من مشاهير الهجَّائين، لزمَّن غير قصير شريداً مطارداً إذ لاحقه المعتصم بن صمادح (429 - 484 هـ / 1038 - 1091 م)

(7) جاء في ترجمة أبي عبد الله محمد بن يحيى بن زكريا القلقاط القرطبي ما نصّه "فانصرف إلى قرطبة وابتدا بهجاء ابن حجاج. فقال شعره الذي فيه | الكامل |

أَبْغَى نَوَالٍ الْكَرَمَيْنِ مَعَا وَلَا أَبْغَى نَوَالٍ الْيَوْمَةِ الْبُكَاءِ

فبلغ الشعر ابن حجاج. فأرسل إليه من قال له : والله الذي لا إله غيره لنن لم تكفّ عما أخذت فيه لأمراً من يأخذ رأسك فوق فراشك فارتاع وكفّ - ابن سعيد المغربي. المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف. القاهرة : دار المعارف، ط 3 / د.ت 111/1 ..

(8) لم نعثر له على ترجمة دقيقة وقد أشار محمد عبد الله عنان الذي ثبت ترجمته في الإحاطة إلى ما يلي : وردت هذه الترجمة الموجزة في مخطوط الزيتونة (لوحه 181 من الجزء الثاني) ولم ترد في مخطوط الأوسكوريال فرأينا إثباتها. الإحاطة 3 / 517 (الهامش)

(9) روى صاحب الإحاطة - في ترجمة عبد الرَّحمان بن الحاج بن القمي الألبيري ما نصّه "كان شاعراً مجيداً، هجا القاضي أبا الحسن بن توبة قاضي غرناطة، ومن نصره من الفقهاء، فضربه ضرباً وجيعاً، وطيف به على الأسواق بغرناطة ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع ط 1975/1، 517/III

(10) أبو إسحاق الألبيري الأندلسي، الديوان، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت : دار الفكر المعاصر ط 1991/1، ص ص 125 - 126.

ثم عفا عنه وأجاره لما أهدر عبد الله بن بلقين الصنهاجي (ت 483 هـ / 1090م) دمه وذلك بسبب ما نمي عنه من هجاء في شخصيهما⁽¹¹⁾. وتآمرت السلطة السياسية مع رجال الدين في القرن السادس لتزجّ ببيحي بن سهل اليكبي (ت نحو 560 هـ / 1165 م)، وهو من مشاهير الهجّائين أيضا، في السجن⁽¹²⁾. وفي العصر نفسه "قامت قيامة الزبير" وأمر بقتل الأبيض (ت بعد 526 هـ / 1131م) لما هجّاه بقوله [الكامل] :

(11) لما بلغ المعتصم أنّ خلف بن فرج السّميسر هجّاه احتال في طلبه حتى حصل في قبضته. ثم قال له : أنشدني ما قلت فيّ فقال له : وحقّ من حصّلتني في يدك ما قلت شرّاً فيك. وإنما قلت [البسيط]

رَأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ : أَبَا الْبَرِّيَةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا
أَنَّ الْبَرَائِرَ نَسَلٌ مِنْكَ. قَالَ إِذَنْ حَوَاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا

فأباح ابن بلقين صاحب غرناطة دمي، فخرجت إلى بلادك هاربا فوضع عليّ من أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت فيدرك ثأره بك. ويكون الإثم عليك فقال : وما قلت فيه خاصة مضافا إلى ما قلته في عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوبا بتشديد قلعه التي يتحصّن فيها بغرناطة قلت [مخلّع البسيط]

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهَا كَانَتْهُ دُودَةُ الْحَرِيرِ

فقال له المعتصم : لقد أحسنت في الإساءة إليه. فاختار : هل أحسن إليك أخلى سبيلك أم أجبرك منه ؟ فارتجل : [الرجز]

حَيْرَنِي الْمُعْتَصِمُ وَهُوَ يَقْضِي أَعْلَمُ
وَهُوَ إِذْ يَجْمَعُ لِي أَمْنًا وَمَتَا أَكْرَمُ

فقال : خاطرك شيطان، ولك النّ والأمان، فأقام في إحسانه بأوطانه حتى خلع عن ملكه وسلطانه المقرّي، نفخ الطّيب 380/IV - 381.

(12) لما أفرط أبو يحيى اليكبي في هجاء أهل فاس تعسّفوا عليه، وساعدهم واليهم مظفر الخصي من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف والقائد عبد الله بن خيار الجياني. وكان يتولّى أمورا سلطانيّة بها . فقدّموا رجلا ادّعى عليه بدين، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتي. ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد، فأثبت الحقّ عليه، وأمر به إلى السجن، فرفع إليه، وسيق سوقا عنيفا، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كتابه، وكتب فيها وأنفذها إلى مظفر مع العون الذي أوصله إلى السجن، فكان ما كتب :

أَرْسَلُوا الزَّنَاتِي الْفَقِيهَ بَيْضَةً يَشْهَدُ بِأَنْ مُظْفَرًا دُو بَيْضَتَيْنِ
وَأَهْدُوا إِلَيْهِ دَجَاجَةً يَحْلِفُ لَكُمْ مَا نَاكَ عَبْدُ اللَّهِ عُرْسَ أَبِي الْحُسَيْنِ

المصدر نفسه، 299/IV - 300.

عَكَفَ الزُّبَيْرُ عَلَى الضَّلَالَةِ جَاهِدًا وَوَزِيرُهُ الشَّهُورُ كَلَبُ النَّارِ
مَا زَالَ يَأْخُذُ سَجْدَةً فِي سَجْدَةٍ بَيْنَ الْكُؤُوسِ وَتَغْمَةِ الْأُوتَارِ
فَإِذَا اعْتَرَاهُ السَّهْوُ سَبَّحَ خَلْفَهُ صَوْتُ الْقِيَانِ وَرَنَةُ الْمَزْمَارِ⁽¹³⁾

وذكر صاحب "المغرب" أن الشاعر عاصم بن زيد، أبا المخشى، قد مثل به وقطع لسانه⁽¹⁴⁾. وكان الهجاء من الأسباب القوية التي من أجلها امتحن ابن الأثير (595 - 658 هـ / 1129 - 1260 م) وقتل وأحرقت كتبه⁽¹⁵⁾.

يظهر واضحاً من خلال هذه الأمثلة أن السلطة في معناها الواسع قد سلّطت على الهجاء من العقوبات أشدها ومن الولايات أمرها، فبين تهديد الأثرياء المترفين وحيل الفقهاء المتشددین وبطش الحكّام المستبدین نطق الهجاء حيناً في وجل وصمت في أكثر الأحيان ملوما محسوراً. وإذا كان لهيب السيّف هو الذي جعل شاعر الهجاء في الأندلس يعيش العمر، إلّا أقلّه، شريداً طريداً، فإنّ بريق المال أيضاً كان من الأسلحة التي أعدتها السلطة لمحاربة الهجاء⁽¹⁶⁾ فقد قيل عن الأعمى المخزومي (ت 541 هـ / 1164 م) أنّه "كان مهيب الصّولة، مرهوب الجولة، مخصوصاً

(13) المصدر نفسه 3/IV، 37.

(14) جاء في ترجمة أبي المخشى عاصم بن زيد ما نصّه " كان جسوراً على الأعراض، فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمان سلطان الأندلسي وأنجبر قليلاً، واقتدر على الكلام (...) وكان الذي غاظ عليه هشام بن عبد الرحمان أنه قال في مدح أخيه سليمان المباين له :
وَلَيْسَ كَمِثْلِي مَنْ إِنْ سِيَمَ عَرَفَا يُقَلِّبُ مُقَلَّةً فِيهَا أَعْوَارِ
وكان هشام أحول، فاغتاظ، وركب منه ما ركب من المثلة. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، 123/II - 124.

(15) حكمة على الأوسي، الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين، مكتبة الخانجي القاهرة . د.ت، ص 240.

(16) مثل المال وسيلة من وسائل محاربة الهجاء - يمكن أن نراجع في هذا الإطار أطروحة مبروك المناعي "الشعر والمال" ، بحث في آليات الإبداع الشعري عند العرب من الجاهلية إلى نهاية القرن III هـ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب منوبة، 1998، ص 410 وما بعدها.

بالتنايا والتحف والهدايا" (17) ونال ابن حزمون (ت بعد 614 هـ / 1217م) "عند قضاة المغرب وعمّاله وولاته جاها وثروة، كلّ ذلك خوفا من لسانه وحذراً من هجانه" (18). وفي هذا السياق ذكر المقرئ (992 - 1041 هـ / 1631 - 1584م) أنّ أهل الأندلس "كان لهم في الطرف والتعيم والمجون ومدارة الشعراء خوف الهجاء محلّ وثير المهاد" (19) ومهما يكن من تنوّع الوسائل التي أرهبت بها السلّطة القلوب وكمتّ بواسطتها الأفواه وأجمتها يبقى بريق الوعد ضيلاً أمام لهيب الوعيد.

2 - تركت مثالب الرجال لأنني ... (20)

إنّ الناظر في دواوين الشعراء الأندلسيين، وهي غير قليلة، لا يستطيع أن ينكر عزوف أهل الأندلس عن فنّ الهجاء عزوفاً بدا مطلقاً عند عدد غير قليل من الشعراء. والدلائل على ذلك عديدة، منها قلّة الشعراء الذين غلب عليهم الهجاء حتّى اشتهروا به، ومنها ندرة الهجائيات التي وصلتنا، وهي ظاهرة تبرز حتّى عند المشاهير أنفسهم، ومنها استعمال بعض الشعراء لعبارات تدلّ على استنكافهم من التصريح بلفظ الهجاء، هذا كلّ فضلاً عمّا أقدم عليه بعض الشعراء من محو لقصائدهم الهجائية في أخريات حياتهم.

فإذا نحن تجاوزنا الدواوين التي خلت من هذا الفنّ، وهي كثيرة، لاحظنا أنّ حضور الهجاء في دواوين الأندلسيين كان حضوراً باهتاً، من

(17) العميد الأصفهاني، خريدة القصر جريدة العصر، تحقيق آدرتاش آدرنوش، تونس : الدار التونسية للنشر 1971، 255/II.

(18) عبد الواحد المرآكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمّد سعيد العريان ومحمّد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ط 1949/1 ص ص 296 - 297.

(19) المقرئ، نفح الطيّب، 177/I.

(20) أخذنا هذه العبارة من بيت شعري لابن الأحمر ونصّه : [الطويل]

تركتُ مثالب الرجال لأنني أفضّل أن ألقى بفضلي على الناس

ابن الأحمر (الأمير إسماعيل بن يوسف بن محمّد) نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق محمّد رضوان الداية، بيروت : دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع 1967، ص 243.

ذلك أننا لا نعثر في ديوان محمد بن هاني الأندلسي (362/326 هـ / 938 - 973 م) إلا على قصيدة يتيمة⁽²¹⁾ وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه محمد اليعلاوي محقق الديوان فتساءل قائلا : "هل كان صاحبنا مترقعا عن مهاجاة شعراء إفريقية كما ذكر ابن رشيق ؟ أم كان منصرفا عن هذا الغرض بطبعه"⁽²²⁾. ولم يكن حال الهجاء في ديوان ابن الأبار (595 - 658 هـ/1198 - 1260 م) مثلا بأفضل من حاله في ديوان ابن هاني إذ كل ما وصلنا من هجائه ثلاث مقطعات لم تتجاوز في مجموعها أربعة أبيات⁽²³⁾ وفي المقابل وجدناه قد كتب 106 مدحية و39 قصيدة في الوصف أغلبها في وصف الطبيعة.

والحق أن أغلب محققَي الدواوين الأندلسية قد أشاروا في مقدمات أعمالهم إلى الغبن الذي لحق الهجاء في الأندلس. فقد كتب محمد قوبعة يقول في تقديمه لديوان ابن سهل الإسرائيلي (609 - 649 هـ / 1212 - 1251 م) "وإذا ما نظرنا في شعر ابن سهل وجدنا أغلبه في الغزل، ووجدنا له قطعا في وصف الخمر أو الطبيعة وقطعا يعابث بها أو يماجن فيها بعض أصحابه وقلمنا نجده يهجو"⁽²⁴⁾. وجاء في تقديم محمد الشريف قاهر لديوان ابن الخطيب ما نصّه : "وذكر ابن الأحمر بأن ابن الخطيب هجا الغني بالله ابن عمّه ولكنّي لم أر لهذا الهجاء أثرا فيما قرأت"⁽²⁵⁾...

(21) ابن هاني الأندلسي، الديوان، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت دار الغرب الإسلامي 1994، ص 219.

(22) المصدر نفسه، ص 219. (الهامش).

(23) ابن الأبار، الديوان، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس تونس : الدار التونسية للنشر، 1985، الصفحات 445 - 452 - 462.

(24) ابن سهل الإسرائيلي، الديوان، جمع وتحقيق وتقديم محمد قوبعة، تونس منشورات الجامعة التونسية، 1985، ص 128.

(25) ابن الخطيب، ديوان الصيب والجهام والماضي والكهف، دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر، الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 1993/1، ص 177.

فإذا تركنا المقلّين إلى المكثّرين كالسّمسّر واليكّيّ والأبيض وابن عبد ربّه (246 - 328 هـ / 860 - 940 م) وابن سارّة الشنتريني (ويقال ابن صارّة) (ت 517 هـ / 1124 م) وابن شهيد (382 - 426 هـ / 1035 - 992 م) وأبى بكر الخزومي لم نجد ما يشير إلى أنّ الهجاء قد حظي باهتمام واسع، فلا بنيته من المطوّلات التي تدلّ على كدّ وصنعة، ولا مواضيعه بما ينبّه إلى أنّ هذا الفنّ قد أدّى دورا خطيرا يشابه الدور الذي أدّاه في حياة المشاركة. فهل يعني ذلك عجزا عن النظم في هذا الغرض ؟ أم أنّ الأمر يعود إلى أسباب أخرى تتجاوز قضية الطبع ؟

يعسر في الحقيقة الحديث عن عجز لاسيما إذا ما نحن سلّمنا بما جاء في بعض التراجم الأدبية حول منزلة الشعراء الهجائيين كقول ابن بسّام (ت 542 هـ / 1147 م) عن ابن سارّة الشنتريني أنّه "صاعقة مهاجاة" ⁽²⁶⁾ أو قوله عن السّمسّر "له طبع حسن، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقده، وأمّا إذا طوّل ومدح، فقلّما رأيته أفلح ولا أنجح" ⁽²⁷⁾ وكقول ابن سعيد المغربي (610 - 685 هـ / 1214 - 1286 م) عن اليكّيّ "هذا الرّجل هو ابن روميّ عصرنا، وحطيئة دهرنا، لا تجيد قريحته إلّا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء" ⁽²⁸⁾ وكقوله أيضا في ترجمة أبي بكر محمّد الأعمى الخزوميّ "بشار الأندلس انطبعا ولسنا وأداة، وهو الذي أحيا سيرة الخطيئة بالأندلس فمقت، وكان لا يسلم من هجوه أحد، ولا يزال يخطب الآفاق بعصاه ويقع في من أطاعه أو عصاه" ⁽²⁹⁾.

(26) ابن بسّام، الذّخيرة، القسم الثّاني، المجلّد الثّاني 835.

(27) المصدر نفسه، القسم الأوّل، المجلّد الثّاني 883.

(28) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلّ المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة : دار المعارف

ط 3 / د.ت. 266/II.

(29) المصدر نفسه، 288.

فإذا ما نحن تجاوزنا مسألة المقلّين والمكثرين وجدنا بعض المظاهر التي تؤكد أنّ بعض شعراء الأندلس قد نظموا الهجاء في تحرّج وتأثم ويمكن لنا أن نتوقّف عند أربعة مظاهر بارزة :

أولاً : إعراض بعض الشعراء عن الهجاء أو إقبالهم عليه في تحرّج مثلما يظهر في الشواهد التالية : يقول ابن حمديس (447 - 527 هـ / 1055 - 1133 م) | المتقارب | :

يَقُولُونَ لِي : لَا تُجِدْ هِجَاءً فَقُلْتُ : وَمَا لِي أَجِيدُ الْمَدِيحَ ؟
فَقَالُوا : لَأَنَّكَ تَرْجُو الثَّوَابَ وَهَذَا الْقِيَّاسُ لَعَمْرِي صَحِيحٌ
فَقُلْتُ : صِفَاتِي، فَقَالُوا حَسَنًا فَقُلْتُ : نَسِيبِي، فَقَالُوا : مَلِيحٌ
فَقُلْتُ : إِلَيْكُمْ فَلِي حُجَّةٌ وَلِلْحَقِّ فِيهَا مَجَالٌ فَسِيحٌ
عَفَافُ اللِّسَانِ مَقَالُ الْجَمِيلِ وَفَسَقُ اللِّسَانِ مَقَالُ الْقَبِيحِ
وَمَا لِي وَمَا لِمَرِي مُسْلِمٌ يَرُوحُ بِسَيْفٍ لِسَانِي جَرِيحٌ⁽³⁰⁾

وقريبا من هذا الموقف وجدنا ابن بقي (ت 540 هـ / 1145 م) يقول | البسيط | :

وَسَاقِطُ نَالٍ مِنْ عِرْضِي فَقُلْتُ لَهُ : إِلَيْكَ عَنِّي فَلَيْسَ السَّبُّ مِنْ شِيَمِي
أَعْرَضْتَ عَنْهُ وَلَوْ أَنِّي عَرَضْتُ لَهُ سَقَيْتُهُ حُمَةً الْأَفْعَى مِنَ الْكَلَمِ⁽³¹⁾

ويصدر الرّصافي (572 هـ / 1177 م) عن الموقف نفسه فيقول | المتقارب | :

عَفَا اللَّهُ عَنِّي فَإِنِّي امْرُؤٌ أَتَيْتُ الصَّنَاعَةَ مِنْ بَابِهَا
عَلَى أَنِّي عِنْدِي لِمَنْ هَاجَنِي كَنَائِنُ عَضَّتْ بِنَشَابِهَا
وَلَوْ كُنْتُ أَرْمِي بِهَا مُسْلِمًا لَكَانَ (السَّهِيلِي) أَوْلَى بِهَا⁽³²⁾

(30) ابن حمديس، الديوان، صححه وقدم له إحسان عباس، بيروت : دار صادر، للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر 1960 ص 94.

(31) الفتح بن خاقان، قلاند العقيان، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، تونس : الدار التونسية للنشر 1990، ص 676.

(32) نفح الطيب، 401/3.

وحول هذه المعاني نفسها قال ابن الأثير | الكامل | :

قُلْ لَابِنِ شَلْبُونٍ مَقَالَ تَنْزُهُ غَيْرِي يُجَارِيكَ الْهَجَاءَ فَجَارِ
إِنَّا اقْتَسَمْنَا خَطِيئَتَنَا بَيْنَنَا فَحَمَلَتْ بَرَّةٌ وَاحْتَمَلَتْ فَجَارُ⁽³³⁾

ويقول ابن الأحمر مؤكدا هذه النزعة الأخلاقية (ت807 هـ /
1404م) | الطويل | :

تَرَكْتُ مَثَالِيِبَ الرَّجَالِ لِأَتْنِي
أَفْضَلُ أَنْ أَلْقَى بِفَضْلِي لِلنَّاسِ
وَأَرْجُو بِذَلِكَ السَّتْرَ يَوْمَ فَضِيحَةٍ
إِذَا جَلَّ خَطْبٌ فِي الْقِيَامَةِ بِالنَّاسِ⁽³⁴⁾

تتضمن الأبيات المذكورة خطابا حجاجيا برّر إعراض بعض الشعراء
عن فن الهجاء. وتبدو الحجج التي تقوم عليها هذه الأشعار دائرة حول
العامل الأخلاقي فكان الشاعر قد اقتنع بالشروط الأخلاقية التي فرضتها
عليه البيئة الأندلسية فلم يعبر عن ضيقه بها وتبرمه منها بل على العكس
من ذلك أصبح يفكر في إطار هذه الشروط ويحمل نفسه على تبنيها
وهو ما يدل دلالة واضحة على أن الشاعر قد فرض على نفسه رقابة
ذاتية وضرب على إبداعه حدودا صارمة و قيودا ثابتة.

ثانيا : التمهيد للنص الهجائي بما يشير إلى أن النظم في هذا الغرض
إنما هو إثم من ذلك قول ابن الخطيب "قلت والرجو عفو الله : | الكامل |
مَرَّ الذُّبَابُ عَلَى فَمِ ابْنِ كُمَاشَةَ فَانْفَضَّ عَسْكَرُهُ وَهِيضَ جَنَاحُهُ
فَكَانَهُمْ صَرَغَى وَقَدْ عَصَفَتْ بِهِمْ مَسْمُومَةٌ عِنْدَ الصَّبَاحِ رِيَاحُهُ"⁽³⁵⁾

(33) ابن الأثير، الديوان، ص 465.

(34) ابن الأحمر، نثير فراند الجمان، ص 243.

(35) ابن الخطيب، الديوان، ص 358.

وقد تكرّرت هذه الظاهرة في معرض تعليقه على إحدى هجائاته "وفي ذلك أقول مستريحا، إن لم يكن - علم الله تعالى - شأني، ولا تكرّر في ديواني" (36) ووجدناه يقول أيضا : "وقلت في مخاطبة ساقط أفرط في الخنزونة وتناهى، وفخر بالعرض الحائل وباهى ولها حكاية، والله يتجاوز بفضله وكرمه" (37).

ثالثا : استعمال مصطلح "التعريض" بدلا عن مصطلح الهجاء حتى في النصوص التي يكون فيها الهجاء صريحا. وقد بدا هذا الأمر واضحا في "ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي" (38). ولعلّ التنافر بين طبيعة المصطلح وطبيعة النصّ قد دفعت بمحققي الكتاب، محمد الهادي الطرابلسي وجمعة شيخة إلى التعليق على قول الشاعر "وفي معنى الغرض المذكور (يعني التعريض) [الكامل] :

عَزَلُوا ابْنَ الْأَحْوَلِ عَنْ وَظِيفِ قَضَائِهِ لَمَّا آتَى بِالْجَوْرِ فِي الْأَحْكَامِ
وَأَبَوْا شَهَادَتَهُ لْجُرْحَتِهِ [التي] ثَبَّتَتْ بِمُوجِبِهَا لَدَى الْحُكَّامِ

بقولهما "يعني التعريض وهو هنا في معنى الهجاء" (39). وقد أشارا أيضا إلى أنّ الشاعر لم يذكر مصطلح الهجاء في نعت شعره وكلّما نزع إلى هذا الغرض استعمل مصطلح "التعريض" في مقدّمات الأشعار. وقد استعمل مصطلح الهجاء في نعت شعر غيره" (40)

(36) ابن الخطيب، نفاضة الجراب، ص 110.

(37) المصدر نفسه، ص 136.

(38) عبد الكريم القيسي الأندلسي، الديوان، تحقيق د. جمعة شيخة، د. محمد الهادي الطرابلسي، تونس : المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، 1988، الصفحات 78 - 79 - 125 - 177 - 205 - 277 - 289 - 290 - 308 - 310 -

311.

(39) المصدر نفسه ص 313 (الهامش).

(40) المصدر نفسه، ص 11.

رابعاً : "تطهير" الديوان من أشعار الهجاء كما حدث في تجربة ابن سارة الشنتريني ولسان الدين بن الخطيب، فلئن ذهبت بعض كتب التراجم إلى أن لابن سارة "أماجي سدّدها نبالا وأورث بها خبالاً" ⁽⁴¹⁾ فإن صورة الديوان لا تعكس ذلك والسبب أن الشاعر قد تبرأ في أخريات حياته من قصائده الهجائية كما أشار إلى ذلك صاحب القلاند في قوله "... إلا أنه قد قوّض اليوم عن فنائها ونقض يده من اقتنائها" ⁽⁴²⁾.

أمّا لسان الدين بن الخطيب فقد جمع ديوانه ورتبه في أخريات حياته عندما كان يعيش تجربة زهدية روحية. ومن ثمة بدت المفارقة واضحة بين أقوال القدامى حول منزلته في الهجاء وصورة الهجاء التي يكشف عنها ديوانه. ففي الوقت الذي أكدت فيه كتب التراجم أنه "قد أقذع وبالع في هجو أعدائه بما لا تحتمله الجبال، وهو أشدّ من وقع النبال" ⁽⁴³⁾ وأنه "صلّ لسانه في الهجاء لسع، ونجاد نطاقه في ذلك اتسع" ⁽⁴⁴⁾ لا نظفر في المقابل إلا بمقطوعات معدودة محدودة تتناثر في أعطاف ديوانه. ولما كان ابن الخطيب قد جمع ديوانه بنفسه رجحنا أن يكون هو المسؤول الأوّل عن اختفاء أكثر أشعاره الهجائية. وليس لنا بعد هذا كلّهُ إلا أن نسأل لم عاشت قصيدة الهجاء في الأندلس غريبة منبئة تنفّس بعسر وتسير على هامش أغراض الشعر الرئيسية ؟

3 - صنت كتابي هذا عن شين الهجاء ⁽⁴⁵⁾ :

لا أحد ينكر الدور الهامّ الذي تضطلع به كتب التراجم في حفظ نصوص الأدب وإنقاذها من التّلف والضياع. ويبدو أن دور الرواية في

(41) ابن خاقان، قلاند العقيان، تحقيق ص 628.

(42) المصدر نفسه، ص 628.

(43) المقرئ، نفع الطّيب، ج 66/VII.

(44) ابن الأحمر، ثير فراند الجمان في نظم فحول الزّمان، ص 243.

(45) وردت هذه العبارة في قول ابن بسّام "ولما صنت كتابي هذا عن شين الهجاء، وأكبرته أن

يكون ميدانا للستفاء، أجريت مهنا طرفا من ملّيح التّعريض" الذّخيرة، القسم الأوّل، المجلّد

الأوّل، ص 544.

الأندلس - في علاقته بالهجاء - كثيرا ما سار في طريق معكوس لأنه بدلا من أن يحافظ على فنّ الهجاء - الذي يكثر فيه الارتجال وهو ما يجعله مهّدّا بالاندثار - ساهم عن قصد في تضييعه ومن ثمّ ضاعت كثير من السبل التي تجعلنا نقف على صورة الهجاء الحقيقية في الأدب الأندلسي. لذلك فنحن لا نبالغ إذا ذهبنا منذ البداية إلى الإقرار بأنّ معظم الهجاء الأندلسي قد ضاع ولم يصلنا منه إلّا أقلّه.

ويعدّ ابن بسّام في نظر العديد من الدارسين والنقاد من أكبر مؤرّخي الأدب مسؤولية عن ضياع جزء غير قليل من مدوّنة الهجاء في الأندلس. وحسبنا في هذا السياق أن نشير إلى ما كتبه إحسان عبّاس في معرض حديثه عن الهجاء في عصر الطوائف : "كان مجال الهجاء واسعا في هذا العصر، ولكن ابن بسّام وهو المؤرّخ الأدبي الأوّل للحقبة التي ندرسها تدمّم من إدراج أشعار الهجاء في كتابه، ولذلك فإنّ صورة الهجاء لا تعدّ مستوفاة أو واضحة" (46).

أمّا دور ابن بسّام عن ضياع قسم من الهجاء لا يستهان به فتلك حقيقة لا ينكرها دارس لتاريخ الأدب الأندلسي (47)، لذلك لا ترانا في حاجة إلى الإسهاب فيما فصلّ فيه سابقونا القول (48)، وأمّا أن نجعل هذا المؤرّخ الأدبي الأوّل المسؤول الوحيد عن "الكارثة" التي حلّت بالهجاء الأندلسي فذلك ما لا نرى له حججا كافية وذلك لسببين على الأقلّ

(46) إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والرايطين، بيروت : دار الثقافة، ط 7، 1985 ص 139.

(47) ابن بسّام، الذخيرة، القسم الأوّل، المجلّد الأوّل ص 545 - 546.

(48) يمكن أن نراجع على سبيل التمثيل لا الاستقصاء :

- إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي، ص 139 وما بعدها.

- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، د ت ص 214 وما بعدها.

- علي محمد سلامة، الأدب العربي في الأندلس تطوره - موضوعاته وأشهر اعلامه، الدار العربية للموسوعات، 1989، ص 228 وما بعدها.

يتصل أولهما بابن بسّام ذاته فهو وإن أعلن رفضه للهجاء فقد روى كثيرا من نماذجه ولولا ضياع مصنفه "ذخيرة الذخيرة" (49) لعدّ أبرز مؤرّخ حفظ لنا فنّ الهجاء من الضياع والتلف، ويرتبط ثانيهما بأصحاب التراجم الأدبية فهم قد أسفروا عن عداء بيّن للهجاء وأصحابه ومن ثمّ يكون التحفّظ عن رواية الهجاء ظاهرة تجاوزت ابن بسّام إلى غيره من مؤرّخي الأدب.

من الحقائق التي قد لا يرقى إليها الشكّ، في نظرنا، أنّ أصحاب التراجم الأدبية في الأندلس قد استنكفوا من جمع الهجاء وروايته ومن ثمّ ضاع قسم هامّ من مدوّنتهم. وليس حكمنا هذا مبنياً على مجرد افتراض وتخمين ولا هو أيضاً مستقى من بعض المقارنات التي تبرز عميق المفارقات بين ما وصف به بعض الشعراء من تبريز في هذا الغرض والصورة التي وصلتنا عليها أشعارهم، وكنا قد أشرنا إلى هذا الأمر سابقاً، وإنّما هو مستند بالأساس إلى ما صرّح به مؤرّخو الأدب أنفسهم من رفض لرواية الهجاء. ففضلاً عن ابن بسّام الذي صرّح في أكثر من موضع بأنّه لن يثبت متونا هجائية غزيرة (50) ترجم صاحب "المعجب" لابن حزمون فقال: "ولعلي بن حزمون هذا قدم في الآداب واتّسع في أنواع الشعر، ركب طريقة أبي عبد الله ابن حجّاج البغدادي - سامحه الله وغفر له، فأربى فيها عليه (...) له في الهجاء يد لا تطاول غير أنّه يفحش في كثير منه فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك واسلمه من الفحش والإقذاع، أبيات ركب فيها طريقة الحطينة: ابتداء يهجو نفسه ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قوّاد الأندلس يقال له محمد بن عيسى مشهور التّجدة عندهم والأبيات الطّويل |

تَأَمَّلْتُ فِي الْمِرْأَةِ وَجْهِي فَخَلَّتْهُ كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أَشَارَتْ إِلَى اللَّهِوِ

(49) ابن بسّام، الذخيرة، القسم الثاني، المجلّد الثاني، 835.

(50) يظهر ذلك خاصّة في ترجمة السّميسر القسم الأول المجلّد الثاني ص 883 وفي ترجمة ابن سارة الشنتريني القسم الثاني، المجلّد الثاني، ص 834 وما بعدها.

(...) وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيرا إلا أنه أقذع فيه،
 فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأتني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا
 عني⁽⁵¹⁾. وأعرض ابن الأثير عن ذكر بعض الشعراء الذين لم يجد لهم
 ص شعر سوى غرض الهجاء فقال "وتركت لأجل الهجاء من لم أجد له
 سواه"⁽⁵²⁾ وقال واصفا أحد الهجّائين "كان أحبّهم لسانا وأكثرهم افتنانا
 وإنما أخرته لعداده في العامة حتى يهجو فيجنيء بالطامة وما أنسى
 تعجب أبي الربيع شيخنا منه واستغرابه لما يصدر عنه"⁽⁵³⁾ وترجم ابن
 الخطيب لأبي بكر المخزومي قائلا "كان أعمى شديد القحة والشرّ، معروفا
 بالهجاء، مسلّطا على الأعراض، سريع الجواب، ذكّي الذهن، فطنا
 للمعاريض سابقا في الهجاء، فإن مدح ضعف شعره"⁽⁵⁴⁾ وقيل عن هذا
 الشاعر أيضا أنه "نذل هجاء"⁽⁵⁵⁾ ونذكر ممّا جاء في ترجمة ابن سارة
 الشنتريني في كتاب الذخيرة "ولقد رأيت له عدّة مقطوعات في الهجاء،
 تربى على حصى الدهناء، وهو فيه صائب السّهم، نافذ الحكم، طويت
 عليه كشحا، وأضربت عن ذكره صفحا، وربما أملت منه بالأقلّ"⁽⁵⁶⁾.
 وترجم ابن الأحمر لابن الخطيب فقال: "... ما ضرّه لو انشغل بذنوبه
 وتأسّف على ما شرب من ماء الهجو بذنوبه وستر العيوب وكف أكف
 الناس (...)" وقال بعض الناس من تعرّض للأعراض صار عرضه هدفا
 لسهام الأغراض"⁽⁵⁷⁾.

(51) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار الغرب، ص 295 - 296.

(52) ابن الأثير، تحفة القاد، تحقيق احسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1986، ص 219.

(53) المصدر نفسه، ص 246.

(54) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/424.

(55) خريدة القصر، 2/255.

(56) ابن بسّام، الذخيرة، القسم II، المجلّد II ص 834.

(57) ابن الأحمر - نثر فراند الجمان في نظم فحول الزّمان ص 243 - 244.

واضح من خلال هذه الأمثلة أن مؤرّخ الأدب في الأندلس لم ينظر إلى الهجاء بمعزل عن الدين وبمناى عن الأخلاق، وواضح أيضا أن مدونة الهجاء الأندلسي قد وصلتنا مخرومة. ومن هنا تردّد سؤال جوهري في الدّراسات الدّائرة حول الهجاء الأندلسي أين ذهب الهجاء ؟ فقد كتب الشاذلي بويحيى يقول "إننا نقرأ هذا الذي تبقى من شعر ابن شهيد ونمعن النظر فيه فنرى فيه أغراضا أدبية مختلفة ومواضيع شعرية شتى لكننا نبحث عن شعر الخلاعة أين هو ؟ وعن شعر الكبر والصّلف أين هو ؟ وشعر الهجاء والاستهتار من رجل سليط ونحن نقدر أن كلّ هذا قد كان بل نعلم قد كان" (58) وفي السياق نفسه تساءل حسن النّوش قائلا : "لقد كان من المتوقّع أن يؤثر عن ابن سارة من شعر في الهجاء يفوق في وفرة وكثرته ما يؤثر عنه في أيّ غرض آخر (...) فماذا حدث لهذا الشعر كلّ ؟" (59).

II - أسباب المهنة :

إذا ما نحن حاولنا أن نبحث عن الدّوافع التي جعلت العداء بين الهجانين والسّلطة مستحكما لا يكاد يفتر. وأخذنا النفس بتقصّي الأسباب التي نفّرت شعراء الأندلس وأدبائها من فنّ الهجاء أمكن لنا من خلال الشّواهد التي توفرها المدونة أن نميّز نوعين من الأسباب :

(58) الشاذلي بويحيى، ابن شهيد الأندلسي حياته وشعره، رسالة التّوابع والزّوابع، تونس : مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنّشر والتّوزيع 1993، ص 10.
(59) حسن أحمد النّوش، ابن سارة الشنتريني الأندلسي، حياته وشعره، بيروت : دار ومكتبة الهلال، 1996، ص 205.

1 - الأسباب السّياسيّة :

يمكن حصر الأسباب السّياسيّة في عنصرين بارزين يتّصل الأوّل بعلاقة الأديب الأندلسيّ بالسلّطة ويرتبط الثّاني بظاهرة الاستبداد السّياسيّ.

1 - علاقة الأديب بالسلّطة وتأثيرها في تهميش غرض

الهجاء : قد لا نعدو الصّواب إذا قلنا إنّ أدباء الأندلس، إلّا أقلّهم، قد أوقفوا حياتهم وفنّهم على أعتاب البلاط، يدلّ على ذلك كثرة الذين تولّوا مناصب سياسيّة، ويدلّ على ذلك أيضا كثرة المدائح التي رشحت بها دواوينهم. لا عجب عندئذ إن لم ينصرف أكثر الشعراء إلى الهجاء ولا عجب خصوصا أن ينذر الهجاء السّياسيّ ولا يكون إلّا تنفّا باهتة⁽⁶⁰⁾. وفي هذا السّياق أيضا لا نستغرب إن لم نجد مؤرّخي الأدب قد انشغلوا برواية الهجاء لا سيما إذا علمنا أنّ أكثر مؤلّفاتهم قد جاءت استجابة لطلب من الأمراء. ولما كان الأمراء، فيما بيّنا، قد كرهوا الهجاء ونبذوه بات من الطّبيعيّ أن تغيب أشعار الهجاء عن مؤلّفات أصحاب التّراجم. ولعلّ أعمال ابن الخطيب تقدّم نموذجا صالحا لذلك، فأكثرها كان هدايا لأبي الحجاج بن نصر (733 - 755 هـ / 1332 - 1354 م) "كتلخيص الذّهب" و"جيش التّوشيح" و"التّاج المحلّيّ في مساجلة القدح

(60) يمكن أن نراجع في هذا السّياق دراسة إبراهيم بيضون، الأمراء الأمويون، الشعراء في الأندلس : دراسة في أدب السلّطة، بيروت دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، د.ت. ص 134.

المعلّى" و"الإكليل الزاهر فيمن نظم عند التّاج من الجواهر" (61) ... والغالب على هذه المختارات أن تدور على الوصف والتّسيب والزّهد والمدح (62).

ب - ظاهرة الاستبداد ودورها في صرف الهجائن عن فنّ الهجاء : إنّنا حين تتأمّل واقع الأندلس السّياسيّ في علاقته بفنّ الهجاء لا نملك إلّا أن نعبر عن استغرابنا من التّناقضات التي حكمت هذه العلاقة فمن الثّابت أنّ الاضطرابات السّياسيّة والفتن والحروب والاستبداد بما يساعد على انتشار الهجاء. بيد أنّ ذلك لم يحصل في الأندلس رغم شدّة الاضطرابات والفتن وحدّة الحروب وتعاضل الاستبداد (63). فإذا ما نحن تجاوزنا مثلاً البدايات الأولى التي كانت تشير إلى أنّ الصّراع بين العرب والمولدين سيمهّد لضرب من الهجاء السّعوي (64) ألفينا عدم الاستقرار السّياسيّ من جهة وانعدام الأحزاب السّياسيّة الواضحة المعالم

(61) (يمكن أن نراجع مقدمات هذه المؤلفات في كتاب (ريحانة الكتاب وجمعة المنتاب) القاهرة، مكتبة الخانجي ط 1 / 1980 / المجلد الأول ص 15 وما بعدها.

(62) يمكن أن نذكر على سبيل التّمثيل لا الحصر ما جاء في مقدّمتي كتابي "المطرب من أشعار أهل المغرب" و"السّحر والشّعر" :
- فجُمعت منها لخدمة مقامه العالي ما يؤكل بالضمير ويشرب ويهتزّ عند سماعه يطرب في الغزل والتّسيب والوصف والتّشبيب، إلى غير ذلك من مستطرفات التشبيهات المستعذبة ومبتكرات بدائع الخواطر المستغربة ولمح سير ملوك المغرب وملخ أخبار أديبانه ورقيق معاني كتابه وجزل الفاظ خطبانه.
ابن دحية (أبو الخطّاب عمر بن حسن) المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد، أحمد أحمد بدوي، القاهرة مطبعة دار الكتب المصريّة 1997، ص 4.

- يقول ابن الخطيب في كتابه "السّحر والشّعر" وهو على ترتيب معلوم، ووصف موسوم، من المدح وما يقاربه، والتّسيب وما يناسبه، والوصف وإن تشعبت مذاهبه، والملح وفيها محاسن الشّيء ومعابه، والحكم والزّهد وما اشتمل عليه واجبه.
ابن الخطيب، ريحانة الكتاب، I / 27.

(63) حول تأثير هذه الظروف في غير شعر الهجاء يمكن أن نراجع أطروحة جمعة شيخة، الفتن والحروب و أثرها في الشّعر الأندلسيّ (من سقوط الخلافة ق 5 هـ / 11 م إلى سقوط غرناطة ق 9 هـ / 15 م) تونس : المطبعة المغاربيّة للطباعة والنّشر والإشهار، ط 1 / 1994.

(64) يمكن أن نراجع في هذا السياق حكمة علي الأوسي، فصول في الأدب الأندلسيّ في القرنين الثّاني والثّالث للهجرة، القاهرة مكتبة الخانجي، 1977، ص 95 وما بعدها.

من جهة ثانية قد حال دون بروز الهجاء الذي يدافع عن نحلته وينافح عن مذهبه بهجاء الأحزاب المناوئة له.

ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن أهم عامل سياسي ساهم في تطويق الهجاء ومحاصرته إنما هو الاستبداد الذي اشتدت سطوته أيام الطوائف، ومن هنا تعددت الآراء التي ربطت بين ضعف الهجاء واستبداد السلطة السياسية، فقد كتب غرسية غومس يقول "وقد عملت الظروف الجديدة، واستبداد طواغيت الحكام بالناس أيام الطوائف على زوال هذا الفن"⁽⁶⁵⁾، وفي هذا السياق أيضا كتب إحسان عباس قائلا "ولم يكن صوت النقد الموجه ضد الحكام قويا جهيرا في أيام ملوك الطوائف (...)" وكانت أبرز مظاهره النقدية تلك اللذعات التي يوجهها أمثال السمسير في مقطعاته القليلة، أو تلك الحشرات المبهمة التي يرددها الاتقياء الزهاد عن سوء الأحوال السياسية والاجتماعية "⁽⁶⁶⁾".

ويحسن بنا ونحن نتحدث عن الاستبداد أن نشير إلى طبقة الفقهاء والقضاة لأنها قد احتلت مكانة هامة في التنظيم السياسي لدى الأندلسيين⁽⁶⁷⁾، وإذا ما نحن اقتصرنا في النظر إليها اعتمادا على ما وصلنا من هجاء أمكن لنا أن نعدّ القضاة من أكثر المهجّوين في الشعر الأندلسي وأمكن لنا أيضا أن نلاحظ إمعان هذه الطبقة في ظلمها وجورها وإسرافها في جمع الثروات وتكديسها⁽⁶⁸⁾، لاعجب عندئذ إن

(65) إميليو غرسية غومس، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 1956/2، ص 106.

(66) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 145.

(67) احتلّ الفقهاء والقضاة منزلة هامة وحول هذا المعنى كتب عبد الله بن بلقين في مذكراته يقول "ولم تزل الأندلس قديما وحديثا عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده ... وأما ما كان بينهم من مظلمة أو قضية وكلّ حكم يرجع للسنة فإنما كان لقاضي البلدة " مذكرات الأمير عبد الله، ص ص 17 - 18.

(68) يمكن أن نراجع مثلا شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات : الأندلس، دار المعارف، د. ت، ص 227.

هم هتدوا كل من سعى إلى كشف عيوبهم ولا عجب أيضا إن هم جعلوا
الدين ستارا لمحاكمة الهجانين.

2 - الأسباب الأخلاقية ،

ليس من العسير على الناظر في تاريخ الشعر الأندلسي أن يدرك
ما للوازع الأخلاقي من تأثير واضح في توجيه أغراض الشعر وتحديد
مسالكها. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن بين الدين والشعر في الأندلس تعالقا
يدحض الرأي القائل "والشعر بمعزل عن الدين". والدلائل على ذلك عديدة
مختلفة نجدها عند المبدع في فنّه ولدى الناقد فيما يرسل من أحكام
ونجدها أيضا عند المؤرخ الأدبي في طريقة ترجمته للشعر والشعراء.
فهذه الأطراف جميعا، كما تبين لنا سابقا، قد أظهرت عدا بينا للهجاء،
وما ذلك إلا لإيمانها بأنّ للشعر مواصفات محدودة وأغراضا مضبوطة
من تعداها عدّ "مارقا فاسقا" ولعلّ خير ما يلخص هذا الموقف قول ابن
حزم (384-456 هـ / 1064 - 994 م) "أمّا من قال الشعر في الحكمة
والزهد فقد أحسن وأجر، وأمّا من قال معاتبا لصديقه مراسلا له وراثيا
من مات من إخوانه بما ليس باطلا، ومادحا لمن استحقّ الحمد فليس بآثم،
ولا يكره ذلك، وأمّا من قال هاجيا لمسلم ومادحا بالكذب ومشبّبا بحرّم
المسلمين فهو فاسق" (69).

ومّا يقوم شاهدا أيضا على أنّ الهجاء في الأندلس قد تأثر بنوازع
الأخلاق، إهمال مؤرّخي الأدب للهجاء المفحش - ويبدو أنّ الإقذاع كان
من السمات البارزة في الهجاء عندهم - فابن بسّام شأنه في ذلك شأن
أكثر مؤرّخي الأدب أخلّى كتابه من "الهجاء المرفوض" في قوله : "...
والقسم الثاني هو السبّاب الذي أحدثه جرير وطبقته (...) وهذا النوع
منه لم يهدم قطّ بيتا ولا عيّرت به قبيلة، وهو الذي صنّا هذا المجموع
عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإنّ أبا منصور الثعالبي كتب منه

(69) ابن حزم. الرد على ابن النغيلة اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق إحسان عباس. القاهرة :

دار العروبة 1960. ص 27.

| في يتيمته | ما شأنه وسمه وبقي عليه إثمه" (70) هكذا تصبح رواية الهجاء إثما يلاحق صاحبه أينما حلّ وخزيا يتابعه إلى يوم الدين ! ولا يخفى ما في هذا الموقف من ارتباط بالتصوّر الإسلاميّ الذي يكشف عنه الحديث النبويّ القائل "من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر" (71).

لا عجب عندئذ إن وجدنا الأندلسيّين وإن عاشوا في بيئة مختلفة عن بيئة أسلافهم قد احتفظوا بأشياء كثيرة من الشّخصيّة العربيّة التي تربّت على تقديس العرض (72). وعاشت على الإيمان الراسخ بأنّ وقع الكلام أشدّ وطأة من وقع الحسام. ولما كانت كلمة الهجاء هي التي تدكّ العرض دكّا وتهدم حصونه هدمًا تهيبّ الأندلسيّون الهجاء وخشوا معرفة لسانه لعلمهم بأنّ من أصابته لعنة الهجاء عاش العمر إلّا أقلّه محسورا مدحورا وبقي بعد مماته مثلاً مشهوراً لم يقل أسلافهم على لسان نابغة بني شيبان (ت127هـ / 744م) [الوافر] :

وَكُلُّ جِرَاحَةٍ تُوسَى فَتَبَرَا وَلَا تَبُرَا إِذَا جَرَحَ الْهَجَاءُ
يُؤَثِّرُ فِي الْقُلُوبِ لَهُ كُلُّومٌ كَدَاءِ الْمَوْتِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ (73)

ولا نستغرب بعد هذا كلّهُ أن يعلن الأندلسيّون حروبهم على الهجاء والهجّانين ولا نستغرب أيضاً إن وجدنا الخلفاء والقضاة قد أسرفوا في تعذيبهم والتنكيل بهم وقتلهم وإن ألفينا الأشراف والأسياد قد بذلوا سخيّ المال لشراء سكوتهم. وقد لا نبالغ إذا قلنا إنّ الأندلسيّين قد خاضوا، كما

(70) ابن بسّام، الذّخيرة، القسم الأوّل، المجلّد الأوّل، ص 560.

(71) ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، ط 5/

1981، ج 170/II.

(72) Bichr Fares : l'honneur chez les arabes avant l'Islam Etude de sociologie , librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-maisonneuve , 1932 .

وينظر خاصّة

Le signe extérieur du cird est l'outrage. L'outrage , en arabe c'est le damm pp 35-42 .

(73) النّابغة الشّيباني، الديوان، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصريّة، ط2/ ص 42.

خاض أسلافهم في المشرق، معركة مع الهجاء، معركة من أجل الحياة ما دام في الهجاء ألوان من الموت أشد من الموت.

ومهما يكن من أمر فإنه بالإمكان أن نخلص إلى أن القصيدة الهجائية الأندلسية قد ولدت في إطار أخلاقي محفوف بالموانع وخرجت على نحو يصعب التكهّن به والخوض فيه بما يكشف للبائح ملابسات النشأة وأطوار النماء.

الخاتمة :

تعلّقت همّتنا في هذا العمل بتقصّي الأسباب التي جعلت شعر الهجاء في الأدب الأندلسي لا يعرف استمرارا طبيعيا وتواصلا حقيقيا كما استمرّت وتواصلت بقيّة الأغراض التي توارثها الأندلسيون عن المشاركة. وقد بان لنا أنّ العوامل التي ساهمت في "نكبة" هذا الفنّ عديدة متداخلة تلازم فيها الذاتيّ بالموضوعيّ، وتمازج فيها السياسيّ الحضاريّ بالنفسيّ الأخلاقيّ وإن بدا العامل السياسيّ في رأينا أقوى العوامل تأثيرا وأثقلها مسؤولية عمّا لحق الهجاء في هذه الحضارة. ولعلّ أهمّ ما يمكن أن نحفظ به من الملاحظات التي توصّلنا إليها أنّ الهجاء الذي وصل إلينا من الشعر الأندلسيّ ليس إلا قليلا من كثير، ذلك أنّه فضلا عمّا طوته الأيّام من هذا الشعر تأمرت السلطان السياسية والدينية على مؤسّستي الإبداع والرواية فهدمت الأولى وصرفت الثانية عن المسالك المؤدية إلى فنّ الهجاء. فهل لنا أن ندعي بعد ذلك القول الفصل في أيّ قضية تتصل بالهجاء الأندلسيّ؟ وهل نبالغ إذا قلنا إن غياب الحرية في الأندلس قد جنى على الهجاء؟ ولعلّه يحقّ لنا أن نتساءل أخيرا هل ستتواصل محنة الهجاء والهجانين في المجتمعات العربية الحديثة التي لا يزال سؤال الحرية فيها سؤالا تختلط فيه الأوهام بالحقائق إلى حدود الضياع والتلاشي؟